الدولة العثمانية

العثمانيون من أصل تركي، رحلت قبيلتهم من أواسط آسيا هاربة من وجه جنكيزخان. واستقرت في آسيا الصغرى حيث دولة السلاجقة المسلمين. وتقديراً لمساعدتهم السلاجقة في مواجهة المغول منح السلطان السلجوقي لقائد هذه القبيلة (أرطغرل) مقاطعة متاخمة لحدود الدولة البيزنطية. وهذا الموقع الجغرافي للإمارة التركية حدّد من البداية ميدان توسعّها في أملاك الدولة العثمانية.

تأسيس الدولة العثمانية:

ثم جاء عثمان الذي وّسع الإمارة التركية على حساب البيزنطيين، وأشهر إسلام قبيلته ـ كانت وثنية ـ واتخذ بروسة عاصمة له. ولذلك يعتبر مؤسس هذه الدولة، التي انتسبت إليه فأطلق عليها اسم (الدولة العثمانية) ومات عام 1326. وهكذا ظهرت الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي.

والواقع أن نجاح العثمانيين في التوسع في ممتلكات البيزنطيين لا يرجع على وجه التحديد إلى قوة العثمانيين بقدر ما يرجع إلى ضعف الدولة البيزنطية. فقد أنهكت الحروب هذه الدولة، حروب مع الدولة الإسلامية العربية منذ القرن السابع الميلادي وحروب مع الدولة البلغارية طوال القرن العاشر الميلادي.

ولم يحاول العثمانيون التوسع في آسيا الصغرى على حساب جيرانهم الأتراك غير العثمانيين. ولما جرّبوا حظهم في هذا الميدان في عهد بايزيد في

أواخر القرن 14 لحقهم الفشل الذريع الذي أقنعهم بالعودة السريعة إلى أوروبا حتى القرن 16. ومن ثم فالدولة العثمانية قامت وثبّتت نفسها في أرض بيزنطية سواء في آسيا الصغرى أو في البلقان، فهي دولة أوروبية في نشأتها وتكوينها. وهذا يفسر معظم اتجاهات تركيا الحديثة في الوقت الحاضر.

أوروبا والعثمانيون:

في عهد أورخان (1326 ـ 1359) خليفة عثمان، انتقل العثمانيون بزحفهم إلى البلقان بعد أن استولوا على ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى. واستطاعت الدولة العثمانية في عهد أورخان أن تستولي على جزء كبير من تراقيا. وفي عهد مراد (1359 ـ 1390) تمّ للدولة العثمانية الاستيلاء على تراقيا، واحتلَّت أدرنة ـ أصبحت العاصمة الجديدة ـ كما استولت على جنوب بلغاريا ومقدونيا وشرق الصرب. وارتعدت أوصال أوروبا لانتصارات العثمانيين. فاتحدت القوى المسيحية لمحاربة العثمانيين إلا أنها منيت بالهزيمة في معركة (قوصوه) في عهد مراد، ثم في عهد بازيد خليفة مراد انهزمت القوى المسيحية المتحالفة في معركة (نيقوبوليس). وأثبتت هذه المعركة الأخيرة حقيقة شاملة وهي أن الدولة العثمانية تستطيع أن تقف أمام أوروبا كلها مجتمعة دفاعاً عما اكتسبته من أرض أوروبية.

ثم توجت الدولة العثمانية انتصاراتها المتلاحقة بالاستيلاء على أمنع مدينة أوروبية وهي القسطنطينية عام 1453. وجعلت منها العاصمة، وذلك في عهد محمد الفاتح. وكان لسقوط القسطنطينية أثر معنوي بالغ في العالمين المسيحي والإسلامي.

العثمانيون والعالم الإسلامي:

تدّعمَت الدولة العثمانية وعظم شأنها وأصبحت قوة مرهوبة بعد أن زلزلت الأرض بانتصارها الحاسم في القسطنطينية، وقضت على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية). ثم أخذت تحلم بالاستيلاء على العالم العربي وامتلاك الأراضي الإسلامية المقدّسة بصفتها الدولة الإسلامية القوية.

وأتيحت لها فرصة التدخل في شؤون الشرق الإسلامي بعد موت محمد الفاتح. إذ انقسم البيت العثماني على نفسه وتناحر أفراده في سبيل تولي السلطنة. وأخيراً نجح السلطان سليم الأول في اعتلاء عرش الدولة العثمانية عام 1512. وفي أثناء النزاع حرّض الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران ـ كانت إيران تتبع المذهب الشيعي ـ الشيعة من سكان آسيا الصغرى على الثورة ضد العثمانيين. لهذا أعدّ سليم جيشاً كبيراً عام 1514 للقضاء على الشيعة ـ كانت الدولة العثمانية تتبع مذهب السّنّة ـ ودولتهم في إيران، وحدثت معركة (تشالديران) كان النصر فيها حليف العثمانيين.

أطلّت الدولة العثمانية بعد توسّعها في آسيا الصغرى شرقاً على أملاك الدولة المملوكية في الشام. فأغارت على بعض إماراتهم، بحجة مساعدة المماليك للصفويين، كما أن المماليك استضافوا أخا السلطان سليم المعادي له. وفي 1516. وصلت الأخبار إلى القاهرة بالاستعدادات الحربية في القسطنطينية فعرف السلطان الغوري المملوكي أن العثمانيين يستعدون للحرب ضد الدولة المملوكية. فخرج بجيشه إلى الشام وهناك حدثت معركة (مرج دابق) في أغسطس 1516 وقتل الغوري وكان النصر النهائي للعثمانيين، نتيجة خيانة حاكم حلب المملوكي وانضمامه للعثمانيين. وفي أكتوبر 1516 دخلت جيوش

السلطان سليم دمشق بعد أن كانت قد استولت على حلب. وهكذا سيطر العثمانيون على الشام.

وصلت الأخبار المشؤومة ـ بقتل الغوري والاستيلاء على الشام ـ إلى طومانباي نائب السلطان الغوري في مصر، فاستعدّ لقتال العثمانيين والخروج لمقاتلتهم قبل أن يدخلوا مصر. ولكن أمراء المماليك ضغطوا عليه وأقروا انتظار العثمانيين حتى يصلوا إلى القاهرة. وأخيراً حدثت معركة القاهرة وانهزم المماليك نتيجة لإفشاء سر الخطة العسكرية المملوكية إلى العثمانيين. وبذلك دخل العثمانيون القاهرة في يناير 1517 وبذلك انتهت الدولة المملوكية في مصر بعد أن رفعت شأن العالم الإسلامي بتحطيم الصليبيين والمغول.

وكانت مصر تحكم الحجاز، وكان استيلاء العثمانيين على مصر استيلاء كذلك على ممتلكاتها. لذلك أرسل شريف مكة إلى السلطان سليم يعلن ولاءه له، وسلمه مفاتيح الحرم المقدس وبذلك صار الحجاز ولاية عثمانية بعد الشام ومصر، وثلاثتهم كانوا تحت السيطرة المملوكية. ثم استولى العثمانيون على اليمن.

أما في شمال إفريقيا فبعد فتح مصر امتد نفوذ العثمانيين إلى تونس والجزائر بفضل أخوين من أسرة يونانية اشتهرت بالقرصنة في البحر المتوسط وهما عروج وخير الدين. ولما حلّ عام 1534 كان الشمال الإفريقي كله ـ باستثناء المغرب الأقصى ـ تحت حكم العثمانيين.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني (1520 ـ 1566) استولى العثمانيون كذلك على العراق. وهكذا امتد سلطان الدولة العثمانية على جميع الدول العربية.

ركود الحركة التجارية:

فرضت الدولة العثمانية على العالم العربي حصاراً حديدياً منعه من الاتصال بالعالم المسيحي. فقد كان العثمانيون متعصبين إلى أقصى حدود التعصب الديني، فلم يقبلوا دخول المسيحيين إلى الأراضي العربية الإسلامية. ولذلك منعوا التجار الأوروبيين من المرور إلى البحر الأحمر حتى لا يدنسوا الأراضي المقدسة بالحجاز. كما منعت سفن الأوروبيين من التعامل مع أهل الشام وبذلك قضت نهائياً على الحركة التجارية بين العالم العربي وأوروبا، والتي كانت الموانئ العربية على البحر المتوسط في مصر والشام تلعب فيها دوراً رئيساً إلى جانب الموانئ الأوروبية في حوض البحر المتوسط.

حضارة الإمبراطورية العثمانية:

علينا أن نوضح من البداية أن العثمانيين ليسوا أهل حضارة في أي فرع من فروعها. فلم يكن لهم أدب ولا فن ولا علم ولا موسيقى، ولهذا لم يتذوقوا طعم الحضارة، ولم يعرفوا أهميتها ودورها الإنساني. ونتيجة لذلك لم يشجعوا أي تقدم حضاري في إمبراطوريتهم إلا بالقدر الذي يكونون هم في حاجة إليه. ودليل ذلك الحالة التي كانت عليها البلاد الداخلة في الإمبراطورية من تأخر شائن.

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية بالدرجة الأولى والأخيرة. وكان العثمانيون يستغلون موارد إمبراطوريتهم إلى أقصى حدود الاستغلال ليعيشوا هم في نعيم ورفاهية. لهذا شغلهم الشاغل وكان تنظيم هذه الإمبراطورية تنظيماً إدارياً يسهل لهم عمليتين، الأولى حسن الاستغلال، والثانية نشر الطمأنينة والأمن والاستقرار في البلاد التي فتحوها لتتفرغ

obeikandi.com

جيوش الدولة لمهماتها العسكرية. وعلى ذلك يمكن أن نلحظ حضارة العثمانيين في سلطات الحكم والإدارة، وفي النواحي العسكرية.

كان السلطان العثماني هو العمود الفقري في تحريك الجهاز الإداري لأن بيده جميع السلطات. ونظراً لثقل هذه المهمة اتخذ وزراء يتحملون معه مشقة الحكم، وعلى رأسهم الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء ـ الذي يعتبر نائباً عن السلطان. هذا بالإضافة إلى فئة من الموظفين الإداريين على رأسهم رئيس الكتاب ـ قام بما تقوم به وزارتا الداخلية والخارجية في العصر الحديث ـ والدفتردار الذي يشرف على ميزانية الدولة، وشيخ الإسلام الذي عليه مراعاة أعمال الحكومة مع الشريعة الإسلامية. ومن هؤلاء جميعاً يتكون الديوان العالي الذي كان يضم كذلك قواد الجيش والأسطول.

أما عن القوات المسلحة التركية فقد كانت ثلاثة أقسام: مشاة، فرسان، بحرية. وعماد القسم الأول فرق الانكشارية التي تكونت من أطفال المسيحيين الذين كانوا يدفعون كجزية للسلطان العثماني. وقد وجه حكام الدولة اهتماماً كبيراً لهذه الفرق في تدريبها وتثقيفها والعناية التامة بشؤونها. أما الفرسان فقد تنظمت فرقهم على أسس إقطاعية، إذ منح الجنود الممتازون قطعاً من الأرض مقابل إمداد الدولة بعدد من الفرسان بكامل عتادهم. وعن الأسطول، فقد كان لهم أسطول قوي لمساعدة جيوشهم، إلا أنه لم يبلغ درجة القوة التي بلغها الجيش.

obeikandi.com